ملخص كلمةِ

البَطْرِيَرْك يوحنَّا العاشر اليازجي(*)

أُحييكُم جميعًا تحيةَ السلامِ والمحبةِ والسرورِ. ملخص كلمةِ البَطْرِيَرْك يوحنَّا العاشر اليازجي

يُشرفُني -باسمِ أبينا البَطريركِ «يوحنَّا العاشرِ» بطريركِ أنطاكيةَ وسائرِ المشرقِ للرومِ الأرثوذكس- أن أشكرَ أصحابَ الدعوةِ الكريمةِ الأفاضلَ، فضيلةَ شيخِ الأزهرِ الإمامِ الأكبرِ، الأستاذِ الدُّكتورِ/ أحمد الطيب، المحترم، مع كافَّةِ مُعاونِيه من علماءَ وشيوخٍ ومساعدينَ، والشُّكرُ موصولٌ لأعضاءِ مجلسِ حُكماءِ المسلمينَ، الذين نُقدِّر سعيَهم المخلصَ والدؤوبَ في سبيلِ الخيرِ والتَّقدمِ والمستقبلِ.

يشكِّلُ هذا المؤتمرُ خُطوةً لا بُدَّ منها، بعد تلك التي دَعا إليها الأزهرُ الشريفُ سنة ٢٠١٤م؛ لِكَي لا تبقى تلكَ الخطوةُ يتيمةً، ومعَ الأملِ بألا تكونَ هذه الجديدةُ نسخةً طِبقَ الأصلِ من الأولى، بل أن تشكِّلَ مرحلةً متقدِّمةً تتحوَّلُ -فيما بعدُ- إلى حقائقَ ملموسةٍ معيشةٍ مؤكدَةٍ، كما أنَّ هذا اللقاءَ يُظهرُ الصُّورةَ الصَّحيحةَ لبلادِنا؛ الصورةَ المُشرقةَ لأطيافِ مجتمعٍ تُكوِّن معًا عائلةً واحدةً، صورةَ مجتمعٍ تشتركُ فيه الفِئاتُ المختلِفةُ في رسمِ لوحةٍ غنيَّةٍ مميزةٍ تعتمدُ الإيمانَ أساسًا، والوحدةَ الوطنيةَ مِدْماكًا، والعيشَ المشتركَ جسرًا، والتعاونَ المخلصَ مَنْورًا، والانفتاحَ على العالمِ نافذةً؛ تتمُّ من خلالِها العلاقةُ مع الآخرينَ عطاءً وأخذًا.

نتكلَّمُ عن المواطَنةِ وهي -نوعًا ما- شيءٌ من المعايشةِ مع الوضعِ الذي يعيشُ فيه الإنسانُ، فالإنسانُ يتآلفُ مع بيئتِهِ، مع ترابِه ومائِه وهوائِه، مع أرضِهِ وسمائِهِ، مع مزروعاتِهِ وحيواناتِهِ، مع الإنسانِ الذي يعيشُ في جوارِه، وما يُعاكسُ المواطنةَ هي الغربةُ، وهي صعبةٌ وقاسيةٌ، والأصعبُ منها أن يعيشَ الإنسانُ غريبًا في وطنِه، وهي حالُ من لا يجِد فيه كرامتَه وسعادتَه وراحتَه؛ التي لا يمكن للمرءِ أن يكونَ فيها إن لم تكن حالةً عامةً للمحيطِ وللجميعِ دونَ استثناءٍ أو تمييزٍ. قد يتميزُ الإنسانُ بانتمائِه الدينيِّ، فيلحظُ البعضُ وجودَ تفاوتِ أعدادٍ بين أكثريةٍ وأقلياتٍ، ولكنَّ الانتماءَ يتفرعُ إلى العشيرةِ وإلى المدينةِ والقريةِ والعائلةِ والمؤسسةِ والمذهبِ والحزبِ، وما يُميِّزُ الوطنَ أنهُ يجمعُ الجميعَ في بوتقةٍ واحدةٍ، وهذا الانتماءُ لا يُلغي ذاك؛ بل يكونُ فيه عنصرًا غنيًّا وتنوعًا وتكاملًا ولقاءً إذا ما أُحسنَ البناءُ، وهذا يحتاجُ لإرادةٍ وتصميمٍ وصدقٍ وإخلاصٍ، وتجنُّبِ الأنانيَّةِ والمحدوديَّةِ والمصلحةِ الخاصَّةِ الضَّيِّقةِ التي تُقوِّضُ عادةً أضخمَ المشاريعِ، وهنا يأتي دورُ قادةِ الأديانِ في توجيهِ الدَّفَّةِ وتصويبِ المسارِ. نتطلَّعُ إلى وطنٍ عظيمٍ، ووطنُنا ذو تاريخٍ ودورٍ كبيرٍ، لكنَّنا بحاجةٍ -هذه الأيام- للتفاعلِ مع ما هو واقعٌ وحديثٌ، فنتذكَّرُ المدينةَ الفاضلةَ التي تخيلَها الفارابي وحَلَمَ بها أفلاطون، وكانت في فكرِ النبيِّ الكريمِ عندما تكلَّمَ مع الصحابةِ عن النجاشيِّ، الذي «لا يُظلَمُ عنده أحدٌ»، وعبَّرَ عنها الخليفةُ عمرُ بقوله: «متى استعبدتم الناسَ وقد وَلَدَتهم أُمَّهاتُهم أحرارًا»، وقالَ فيها بطريركنا يوحنا العاشر: «إنَّ بلادَنا لا تعيشُ إلا إذا تنفَّسَت برئتَينِ بالمسلمِ

والمسيحيِّ»، ووَرَدَ ذكرُها في «سفر أشعيا النبي»، وفي «سفر رؤيا يوحنا»: أورشليم العلوية التي هي مُبتغى ومحلُّ تطلُّعِ الجميع.

بالتأكيد؛ لا يمكنُ لنا هنا أن نتوقَّعَ حالةً مثلَ تلك، ولكن نقتربُ منها بالقوانينِ والدَّساتيرِ التي تضمنُ حقَّ الإنسانِ وكِيانَه وكَرامتَه واحترامَه، بصَرفِ النَّظرِ عن انتمائِه ومعتقَدِه الذي يخصُّ علاقةَ الإنسانِ بخالِقِه، ومَن الذي يَعرفُ ماذا يوجدُ في قلبِه؟ «هل شَقَقتَ عن قلبِه؟»، والإنسانُ لا يوجد في العالمِ وحدَه، فهناكَ حقوقٌ للآخرينَ أيضًا وواجباتٌ عليه، والكَمالُ يتحقَّقُ عندما يكونُ الواحِدُ مع شركائه كُلًّا واحدًا؛ فيكونُ الأمر على صورةِ الجسمِ الواحدِ ذي الأعضاءِ الكثيرةِ التي تعملُ بتناغُمٍ وتناسُقٍ وانسجامٍ، وما يُسعِدُ الواحدَ منها يُسعِدُ الجميعَ، أمَّا إذا اختلَفَت المكوناتُ؛ فالبيتُ المنقسِمُ على ذاته لا ثباتَ فيه.

قد يكونُ الاختلافُ مشروعًا إذا ما كانَ في التفكيرِ والرؤيةِ والتخطيطِ والعقيدةِ، لكن هذا لا يبرِّرُ الاختلافَ في الهدَفِ الذي يجبُ أن يكونَ واحدًا عند الجميع؛ وهو البناءُ والمستقبلُ والنجاحُ والخيرُ العَميمُ.

المواطنةُ من ثوابتِ الهويَّةِ الوطنيَّةِ، وهي حقٌّ ومسؤوليَّةٌ ومصيرٌ يحدد ضوابطَها الدستورُ والقوانينُ؛ بحيثُ تضمنُ تكافؤَ الفُرصِ والمساواةَ للجميع من منظورٍ وطنيٍّ إنسانيٍّ دونَ تمييزٍ، يثبِّتُ الواحدُ نفسَه بها بمقدارِ ما يَبذلُ ويُضحِّي في سبيلِها، فيُحقِّقُ التوازنَ بين الانتماءِ الخاصِّ وبين الانتماءِ الواسعِ العريضِ، بحيث لا يكونُ الهدفُ الهيمنةَ أو الغلبةَ أو الانعزالَ أو عزلَ الآخرين، بل التعاونَ

والتشاركَ والانفتاحَ في سبيلِ بناءِ مجتمعٍ متماسكٍ متراصٍّ قويٍّ؛ يتطلَّعُ للمستقبلِ، ويحضِّرُ نفسَه لما يُخبَّأ له فيه، ويضمنُ حقوقَ مكوناتِه دونَ تمييزٍ، وكلَّما كانت المكوناتُ قويةً ومتعاونةً كانَ المجتمعُ واحدًا وحاضرًا وقويًا، وإذا ما استفادَ من ماضيه ومن قِيَمِه ومن المخلصين؛ استطاعَ أن يشكِّلَ حاضرًا يسيرُ إلى الأمامِ نحو مستقبلٍ يقفُ فيه إلى جانبِ الآخرينَ في عالمِ العولمةِ الذي لا محلَّ فيه إلا للمُستعدِّين، وتكون المشاركةُ بالعلمِ والثَّقافةِ والفنِّ والقِيَمِ في تكوينِ حضارةٍ إنسانيَّةٍ، وبناءِ المجتمعِ الإنسانيِّ الكبيرِ.

إنَّ حل المشكلةِ يوجدُ في مستويَين؛ فعلى الصَّعيدِ الداخليِّ يكمنُ في الحاجة إلى الترفُّعِ عن أمورٍ أصبحت من الماضي القديمِ، فلم يعُد مقبولًا وَصمُ الآخرينَ بعِباراتٍ كالشِّركِ والتكفيرِ، ومَن الذي يستطيعُ أن يعرِفَ ماذا يوجدُ في قلبِ الآخرين، إضافةً إلى أنَّ «الدَّينونةَ» هي للهِ العليِّ القديرِ، أمَّا وَصمُ الآخرين بالذِّميينَ، وربَّما استُخدِم هذا اللَّقبُ سابقًا عن صدقِ نيَّةٍ وتدبيرٍ، لكنَّه باتَ يُستخدَمُ -فيما بعدُ- وسيلةً وطريقةً لتهميشِ المقصودينَ، والمطلوبُ داخليًّا رصُّ الصفوفِ بالاحترامِ المتبادَلِ وتعاونِ الجميعِ، مع حفظِ حقِّ كلِّ واحدٍ بحريةِ المعتقدِ وإبداءِ الرأي، كما جاء في وثائقِ الأزهرِ الشريفِ، رغمَ أنَّ الحريَّةَ لا تعني أمرًا إيجابيًا على الدَّوامِ؛ لأنَّ الأصحَّ هو أن يكونَ الإنسانُ منضبطًا بلسانِه وأعمالِه، يضبطُه المعتقدُ والمنطقُ والمجتمعُ والأخلاقُ والقوانينُ، وإلَّا كان منفلتًا يتصرَّفُ

علىٰ هواه في الأقوالِ وفي الأفعالِ وفي السُّلوكِ والعاداتِ والقِيمِ، وهو ما لا يَقبلُه العقلُ السليمُ.

لقد أوضحَ بعضُ المفكرين أنَّ تعبيرَ «الذِّميِّ» لم يعُد له وجودٌ؛ لأنَّ الحكمَ الآن لمؤسَّساتٍ وليسَ لفردٍ واحدٍ، كما أنَّه لم يعُد لهذا الفردِ الدورُ القديمُ، كما أكَّدَ بعض المستشارين الكبار جوازَ تولِّي غيرِ المسلمِ؛ لأنه لم يعُد للرَّئيسِ صفةُ الإمامِ التي كانت قديمًا؛ فالولايةُ أصبَحت للمؤسَّساتِ وليسَت للفردِ الوحيدِ.

لهذا؛ فإنَّ بلادَنا التي هي مهبِط الدِّياناتِ السَّماويَّةِ وقد صدَّرتها للعالَمِ، عليها أن تُثبتَ أنَّ ما صدَّرته لم ينتهِ ويتوقَّف، وأنَّها مازالت قادرةً علىٰ التَّصديرِ لقِيَمٍ ونماذجَ للعيشِ الكريمِ، فتحترمَ التعدُّدَ وحقَّ الاختلافِ والمساواةَ وحريَّةَ وكرامةَ الجميعِ، وترفضَ الإقصاءَ والتهميشَ، كما أنَّ رائِدَ الإصلاحِ محمد عبده قال: «إذا صدرَ قولٌ من قائلٍ يحتملُ الكفرَ من مائة وجهٍ، ويحتملُ الإيمانَ من وجهٍ واحدٍ؛ حُمِلَ علىٰ الإيمانِ، ولا يجوزُ حملُه علىٰ الكُفرِ»، إن عدمَ السَّيرِ بهذه الخُطَىٰ يعبِّرُ عن مخالفةٍ للعهودِ والذِّممِ، والتنكرَ للتاريخِ الطويلِ يوحي بأن الموجودَ هو واقعٌ هشٌّ لا يحتملُ الهزَّات والتجريبَ، وأن تعاليمَ الأديانِ أقوالٌ غيرُ قابلةٍ للتطبيق، وأنها لم تعُد مناسبةً لمجتمعٍ حديثٍ.

وعلىٰ الصعيدِ الخارجيِّ؛ فالمسؤولية كبيرةٌ أمامَ العالمِ الكبيرِ وأمامَ التاريخِ، ففي زمنٍ أصبح فيه العالمُ مُشْرعًا، والأبوابُ مفتوحةً، لم يعد الخوفُ من شريكٍ محليٍّ؛ بل إن الخطرَ أصبحَ كبيرًا بانتشارِ منطقِ الإلحادِ واللامعنىٰ الموجودِ عند الكثيرين،

وهو تهديدٌ للجميعِ، والمسؤوليةُ كبيرةٌ أمام مجتمعِنا في تقديمِ صورةٍ للعالمِ أنَّ الإيمانَ مجالٌ وفضاءٌ رحبٌ يتسع ليشملَ بحنانِه كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ لخيرِ الإنسانِ وسعادتِه وسلامتِه.

علينا أن نقدِّم للعالمِ المثالَ في وطنٍ واحدٍ متماسكٍ متضامنٍ عريقٍ له تاريخٌ وصاحبُ رسالةٍ ودورٍ، يمكنُ أن يُسهِمَ به في العالمِ الحديثِ، يقفُ إلى جانبِ سِواه من الدُّولِ في بناءِ الحضارةِ الإنسانيَّةِ والمجتمعِ البشريِّ.